الحضارات هو العناصر التي لم تكن تصلح ، وهذه العناصر تتيبس وتتحجر ، ولكنهـا تخلف وراءها قطعة من تراثها ، كل حضارة ترث العناصر الصالحة للبقاء مـن التـي سبقتها ، وهذا ما يثبت ان التاريخ مستمر ، وانه لا توجد حضارات منقطعة ٠

وكان امل توينبي ان يتبع فترة القلاقل ظهور الكيان الاوسع او العالم الواحد حيـث تصبح الحياة الانسانية فيه وحدة تامة في كل مظاهرها ونشاطها ٠ ويرى ان الحضـارة الغربية يمكن ان تتجنب مصير بابل وروما ، لو ان الغربيين قبلوا نظرية الخيار بين عالم واحد او الفناء ، وليس الخيار بين عالم واحد وعالم مجزأ ٠

لقد حاولت نظرية توينبي في التاريخ مراعاة تشابك التاريخ الانساني ٠ وسعت مـن خلال دراسة التجارب السياسية والحضارية التي مرت بها الامم استخراج قواعد وضوابط لمسار التاريخ ، وهي افكار ساعدت على اغناء الدراسات التاريخية في السنوات العشرين الاخيرة ٠

توينبي والموقف من العرب

على ضوء التفكير الانساني المتحرر من الصبغة القومية والمذهبية ، والتقدير العادل للحضارات ، كان موقف توينبي الصريح المنصف للعرب ، فقد رأى في العرب جماعة سياسية وحضارية اصيلة ، مرت بكل ادوار النشـوء والنمـو والانحدار ثم التجزؤ والانحلال الى وحدات اصغر ، وتحولت من دولة عالمية الى وحدة حضارية عالمية ، وهي الان في دور تجمع بعد تجزؤ طويل ٠ ويتحدى عملية التجمع العربي الحالية خطران : الاستعمار والصهيونية ٠ وكاد الخطـر الاول ينحسر ، اما الخطر الثاني فان تفكير توينبي العلمي وسعة معرفته فـي ميدان التاريخ والحضارات دفعه الى ادراك حقيقته ، ليس على العرب فقط بـل على الحضارة الانسانية جملة ٠

وقد تناول توينبي في كتاباته مجموعة من الموضوعات الحساسة ذات الصلة بقضية فلسطين ، وطرحها امام العالم الغربي بروح المؤرخ المتميز ، في وقت لم تكن وجهة النظر العربية حول القضية الفلسطينية تلقى حكما عادلا في الغرب ، الا في مناسبات نادرة جدا ، نظرا لان الصهيونية ، بالتعاون مع الامبرياليـة ، كانت تسيطر على معظم الصحافة في « العالم الحر » ، وكان العطف والدعـم لاسرائيل ينتشران الى حد كبير ويمارسان تأثيرا على سياسة الولايات المتحدة بوجه خاص ٠ ونجحت اسرائيل في تقديم نفسها للعالم كبلد ديمقراطي ذي مظهر متحرر يتميز بالعدالة الاجتماعية ٠ واهمل تماما كون هذه الدولة الغربية في الشرق الاوسط قد اقامها مهاجرون يهود حلوا مكان مليون لاجيء عربي ٠

وكان توينبي في النصف الثاني من عام ١٩٥٤ قد كتب فصـلا في المجلـد الثامن من مؤلفه « دراسة في التاريخ » تحت عنوان « اليهود والغرب الحديث » تعرض فيه للعدوان الصهيوني على فلسطين ، وللمظالم التي الحقها الصهيونيون